

الهدهد

علي حسن جعفر

في صباح مشرق دافئ، كانت أشعة الشمس الذهبية تنسل برقة بين بساتين النخيل الخضراء والمساحات الصحراوية المفتوحة، حيث يمتزج عبير السعف برائحة الأرض الطيبة. يسير الحاج عمران بوقاره المعهود ، وبجانبه حفيده جواد ذو الأربعة عشر عاماً، الذي يحمل في يده دفتر ملاحظات أخضر صغير، يتأهب لتدوين أسرار الطبيعة التي تخبئها بساتين النخيل.



فجأة، توقف جواد عن المشي، وتجمدت حركته بفضول شديد. لقد تناهى إلى مسامعه صوت رقيق ومنتظم، نداء خفيض يتردد بين جذوع النخيل: "هود هود هود". وضع الفتى يده خلف أذنه، محاولاً تحديد مصدر هذا اللحن الذي جعل قلبه يخفق حماساً، بينما كانت النسمات تحرك خصلات شعره بلطف.



هناك، فوق صخرة كستنائية اللون، استقر طائر الهدهد متباهياً بعرفه الطويل الذي يشبه تاجاً ملكياً. كان يفتح ريش رأسه ويغلقه كالمروحة الزاهية، حيث تبرز ألوانه الكستنائية الدافئة التي تنتهي بأطراف سوداء دقيقة، وكأنها مرسومة بريشة فنان محترف. كان الطائر يميل برأسه يمنة ويسرة، متأملاً محيطه بهدوء.



تأمل جواد تفاصيل الهدهد المذهلة؛ كان صدره وجسمه يكتسيان بلون بني وردي ناعم ينسجم مع رمال البحرين، أما أجنحته العريضة فكانت لوحة فنية من الخطوط المتوازية بالأبيض والأسود، تشبه خطوط الحمار الوحشي في دقتها وتباينها. وعندما بسط جناحيه قليلاً، بدا وكأنه يرتدي رداءً مقلماً منسوجاً من ضياء النهار وعتمة الليل.



بدأ الهدهد يتحرك بخطوات سريعة ومنتظمة على التربة الرملية، يهز رأسه للأمام بذكاء فطري. غرس منقاره الطويل والنحيل، الذي ينحني برشاقة نحو الأسفل، داخل شقوق الأرض والتربة الرخوة. لم يكن يبحث فقط عن قوته، بل كان كالجراح الماهر الذي يستخرج اليرقات والديدان من مخابئها، معيداً التوازن للبيئة من حوله.



اقترب الحاج عمران من حفيده، ووضع يده الحانية على كتفه قائلاً: "انظر يا جواد، هذا الطائر هو حارس البساتين الوفي. إنه ينظف الأرض من الآفات التي تؤذي النخيل دون حاجة لأي مواد كيميائية". بدأ جواد يدون ملاحظاته بسرعة، شاعراً بالامتنان لهذا المخلوق الصغير الذي يجمع بين الجمال المبهر والمنفعة العظيمة.



ومع حلول فصل التزاوج، شاهد جواد زوجاً من الهدهد يحلقان بتناغم في السماء الصافية. لم يبذلا جهداً في جمع الأغصان كبقية الطيور، بل كانا يبحثان عن تجويف طبيعي في جذع نخلة عتيقة، ليكون عشهما الجديد. اختارا ثقباً ضيقاً يحميهما من حرارة القيظ، في قلب نخلة شامخة تضرب جذورها في عمق التاريخ.



داخل ذلك التجويف المظلم، المبطن بقليل من القش الناعم، استقرت الأنثى في سكون مهيب. وضعت خمس بيضات فريدة، تتلون بلون حليبي يميل إلى الخضرة والزرقة الباهتة، تشبه لآلئ صغيرة مخبأة في حضن الشجرة. كانت ترقد عليها بصبر، محمية بجدران الجذع السميكة من أشعة الشمس اللاهبة التي تلف المزارع.



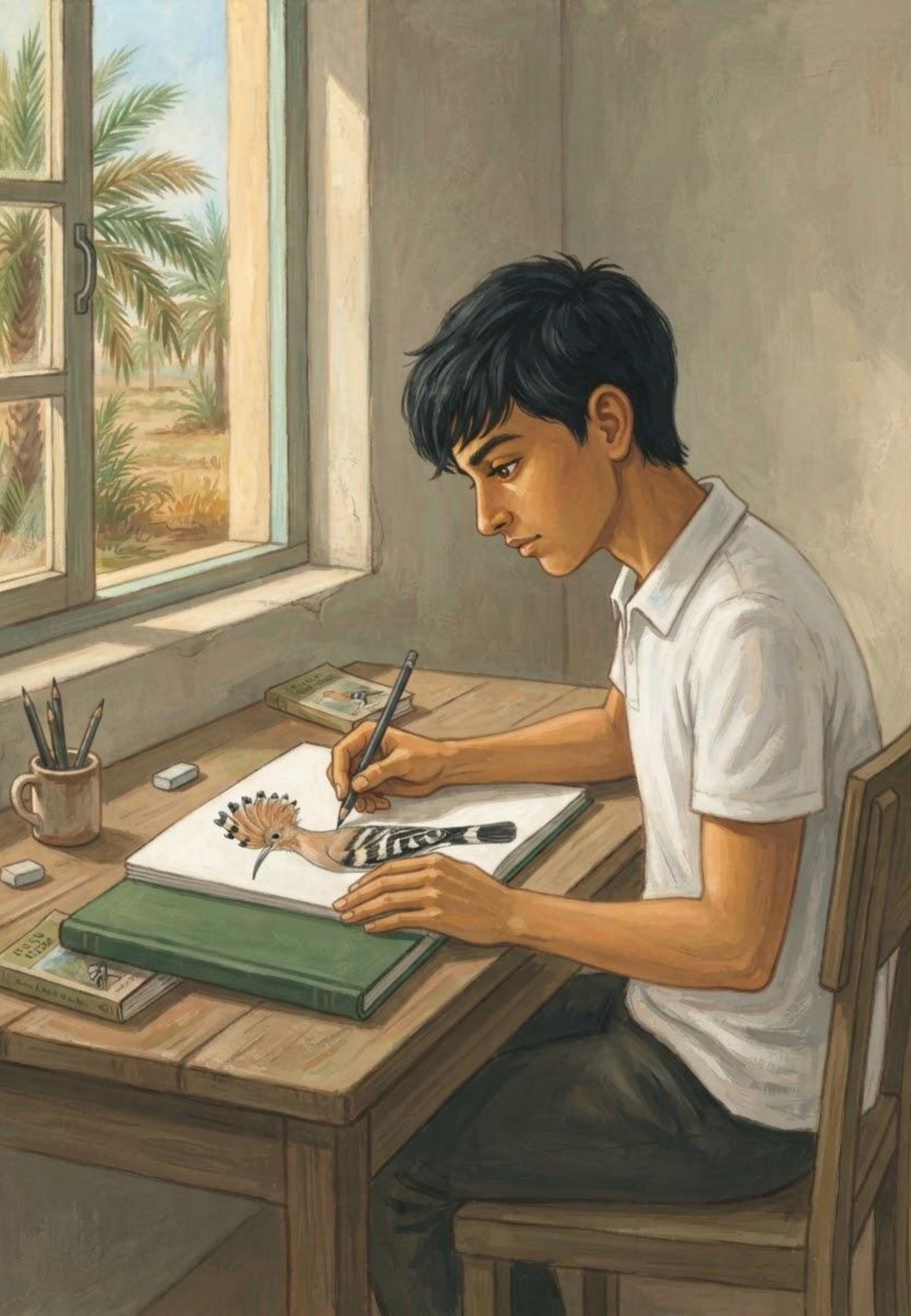
بينما كانت الأنثى تحضن البيض، كان الذكر يقف حارساً شجاعاً في الخارج، عاكساً ألوانه الزاهية تحت الضوء. لم يكلّ عن الطيران والعودة بانتظام، محملاً بالحشرات الوفيرة لإطعام شريكته. كان ريشه المخطط يلمع في كل مرة يحط فيها على حافة العش، حاملاً معه رزق اليوم ومودة الرفيق.



كبرت الفراخ سريعاً تحت رعاية الأبوين، وكان جواد يراقبها من بعيد عبر منظاره، مداوماً على تدوين كل حركة وسكون. لاحظ كيف أن هذه الطيور الجميلة تملك غدة خاصة تفرز رائحة قوية لحمايتها من المتطفلين، وكيف أن الجمال في الطبيعة يحيط نفسه دائماً بوسائل ذكية للبقاء والأمان.



في منزله، جلس جواد ينسق ملاحظاته وصوره التي رسمها للهدهد. كان يركز في رسمه على تدرج الألوان الكستنائية وانحناءة المنقار الرشيقة. أدرك أن حماية البيئة تبدأ من فهم هذه الكائنات وتقدير جمالها، وأن كل ريشة مخططة على جناح الهدهد تحكي قصة توازن بيئي يجب الحفاظ عليه.



انتهى المطاف بجواد وهو يقف بثقة في ساحة مدرسته، يعرض رسوماته الملونة للهدهد أمام زميله سامي ومجموعة من الطلاب. كان يشرح لهم بحماس أهمية الحفاظ على جذوع النخيل القديمة كمساكن لهذه الطيور، بينما في تلك اللحظة، مرّ هدهد في السماء فوقهم، ناشراً أجنحته المخططة كرسالة حية من الطبيعة البحرينية الجميلة.



النهاية

الهدهد

علي حسن جعفر

الطبعة الأولى - ٢٠٢٦م